بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

خطبة صلاة الجمعة للشيخ الدكتور مُحَمَّد شريف الصواف

أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِين

الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي اصطفانا للإيمان، الحمد لله الذي خصنا بالإسلام، الحمد لله الذي جعلنا أمة القرآن، الحمد لله الذي جمعنا في بيت من بيوته، على طاعة من أحب الطاعات إليه، في ساعة من أحب الساعات إليه، جمعنا لنذكره ونشكره، ولنكون في ساعتنا هذه من أهل رحمته، نسأله تعالى أن يجعلنا في ذلك كله من المخلصين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا وحبيبنا مُحَمَّداً عبد الله ورسوله، خير نبي اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد أيها الأحبة، فإن الله تعالى أنزل شرائعه على أنبيائه جميعاً عليهم السلام، ليقودوا الخلق إلى إحسان العبودية لله تعالى، ومن إحسان العبودية لله تعالى أن يخلص العبد عبوديته لله، توكلاً وسؤالاً ورغبةً ويقيناً واعتماداً عليه وحده سبحانه تعالى، إخلاصُ العبودية أن لا يرى العبد مع الله في الكون فاعلاً، ومن عظيم ما جعله الله تعالى في شريعة سيدنا مُحَمَّد ﷺ وأمرنا به سبحانه وتعالى أن الله تعالى أمرنا في كل ركعة من صلاتنا في صلاة الفرض وفي صلاة النافلة، في كل ركعة من ركعاتها أن نكرر قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] حتى نتعلم في كل ركعة وفي كل صلاة إخلاص عبوديتنا لله سبحانه وتعالى.

أيها الأحبة: جعل الله تعالى الأنبياء جميعاً مدرسة عملية لإخلاص العبودية لله، ومن ذلك ما جعله الله تعالى من صور كثيرة ذكرها عن سيدنا إبراهيم عليه السلام، عن إبراهيم أبي الأنبياء الذي جعله الله تعالى مدرسة خالدة باقية، وجعل الله تعالى ما جعل من ذكره ومن صور عبوديته لله الكثيرة المتعددة المتنوعة في سور القرآن الكريم وفي آياته، من ذلك أن الله تعالى لما حدثنا عن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٦-٣٧] وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه إبراهيم الذي وفى، بماذا وفى إبراهيم عليه السلام؟ يذكر العلماء في كتب التفسير معان كثيرة يمكن أن ندرجها في تفسير قول الله

تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ ومن أعظمه ومن أثبته ما ذكره تعالى في القرآن الكريم لما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ سبحان الله، أي منزلة هذه التي جعلها الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١] قال المفسرون: هذا الذي وفى به إبراهيم عليه السلام، وفى بإسلامه، وفى بإخلاص عبوديته لله تعالى، هل معنى قول الله سبحانه وتعالى لإبراهيم عليه السلام: أسلم، أي قل لا إله إلا الله؟ ليس هذا المطلوب، لأن الله تعالى أخبرنا أنه اصطفاه على العالمين، وأخبرنا أنه نبي مرسلٌ مُصطفى، فأصل التوحيد وأصل الشهادة وأصل الإسلام لا شك أنه موجود في إبراهيم وفي الأنبياء جميعاً، ولكن أراد الله تعالى أن ينقل إبراهيم وأن ينقل الصديقين المقتدين بإبراهيم عليه السلام إلى يوم القيامة إلى درجة ومقام أعظم وهو مقام إخلاص الإسلام لله تعالى، إخلاص الاستسلام لله تعالى، إخلاص العبودية لله تعالى، ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الذِي وَفَّىٰ﴾ في سورة أخرى يذكر الله تعالى حال إبراهيم على لسان إبراهيم عليه السلام، ويعبر عن استسلامه لله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وكيف أخلصت عبوديتك لله يا سيدنا يا أبانا إبراهيم؟ يَذكر الله تعالى لنا على لسان إبراهيم عليه السلام صورة ذلك، حين يخبر قومه عن حال عبوديته لله، وهم أهل شرك وهم أهل عدم معرفة بحقيقة ما يجب أن يكون من إخلاص لله تعالى، يُخبرهم عن استسلامه لله، وأنه لا يرى للكون فاعلاً ولا مدبراً إلا الله، حين يقول وهو يحدثهم عن إلهه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٩-٨٢] هذا هو إسلام إبراهيم عليه السلام، وهذا هو الإسلام الذي يريده الله تعالى من كل واحد منا، تفويض الأمر لله، وإخلاص العبودية لله، وصدق التوكل على الله، وأن لا ترى مع الله في الكون فاعلاً، وأن لا ترى مع الله في الكون معطياً، وأن لا ترى مع الله في الكون شافياً معافياً، وأن لا ترى مع الله في الكون رازقاً ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] كيف أسلمت يا إبراهيم؟ يقول إبراهيم عليه السلام حين يحدثنا عن ربه الذي يعبده: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢].

أيها الأحبة: في هذا المعنى من إخلاص العبودية لله تعالى جاءت آيات وأحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، منها ما جاء في الحديث الصحيح الذي ربما نكرره كثيراً، وربما نحفظه من طفولتنا الأولى، لكننا نحتاج دائماً أن نُعيد ما نحفظ بتأمل، أن نعيد ما نحفظ بتفكر، أن نُعيد قراءة ما سمعنا وما تعلمنا، ونحن نتدبر بحقيقة ما يُريده الله وما يُريده النبي ﷺ، من هذه الكلمات النورانية التي أكرمنا بها، إنه ما علمه سيدنا محمّد ﷺ لابن عباس، وهو غلام صغير حيث يقول ابن عباس رضي الله عنه: أردفني رسول الله ﷺ مرة على دابته، شرف الله ابن عباس بصحبة النبي ﷺ على دابته، ولكن النبي ﷺ أراد أن يكرم ابن عباس بزيادة شرف وبزيادة فضل وبزيادة علم، فما اكتفى بفضل ببركة الصحبة، لكن علمه حق العبودية لله تعالى لما خاطبه فقال: ((يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)) إذاً فعل الأمة وعمل الأمة وعمل الناس، وإن كان في ظاهره سبباً لشيء من الخير، ولكنه في الحقيقة ليس إلا تنفيذاً على أرض الواقع لقدر الله تعالى الذي قدره لك من الخير، ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)) هذا إسلام إبراهيم عليه السلام، وهذا الذي وفى به إبراهيم عليه عليه السلام، وهذا هو الذي علمنا إياه النبي ﷺ، لأن علم الأنبياء ولأن حال الأنبياء من مشكاة واحدة، ولأن مقام الأنبياء جميعاً مقام الإسلام لله تعالى استسلاماً.

أحد العارفين بالله، إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه، جاءه رجل قد ابتلي بهمٍّ وغمٍّ ومصاب كما هو حال أكثرنا في هذه الأيام، ولعل هذا الرجل الذي جاء إلى إبراهيم بن أدهم يأتي كل يوم اليوم من الأيام، اليوم في هذه الساعة في هذه المصائب في هذه المحن يأتي يطرق الأبواب ليتكلم الحديث نفسه، يشكو الهم، يشكو الغم، يشكو البلاء، يشكو ما ضاقت به عليه الدنيا، قلة الرزق، الدَّين، المأوى، الأولاد، الأمراض، المستقبل، هموم كثيرة توسوس بها النفس للإنسان، ويأتي الشيطان ليهولها ويكبرها، ليشكك الإنسان بيقينه بربه تعالى، جاء رجل حاله كهذه الحال إلى إبراهيم بن الأدهم، يَشكو ما يشكو من الهم، انظروا إلى المعرفة بالله، انظر إلى وراثة النبي ﷺ، قال إبراهيم بن الأدهم لهذا الرجل، قال له: يا هذا، أيجري شيء في كون الله لا يريده الله؟ راجع إيمانك، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسلِم﴾ هو مسلم ﴿قَالَ أَسلَمتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ راجع إيمانك، راجع إسلامك، يا هذا أيجري شيء في كون الله شيء لا يريده الله؟ قال: لا. قال: يا هذا،

أينقص من رزقك شيء قدره الله لك؟ قال: لا. قال: يا هذا، أينقص من أجلك لحظة قد كتبها الله لك؟ قال: لا. قال: فعلام أصابك الهم، إذا كان رزقك قد قدر لا ينقص منه شيء، وإذ كان عمرك قد قدر لا ينقص منه شيء، وإذا كان الأمر كل الأمر بيد الله، فعلام الهم وعلام سوء ظنك بالله تعالى، ومالك لا تقبل على الله تعالى بكليتك إسلاماً واستسلاماً كما أقبل إبراهيم عليه السلام، كادت له الدنيا بقوتها وجاهها وعظمتها ونمرودها ورجالها، ونجاه الله، لأن إسلامه كان لله تعالى، كان إسلاماً خالصاً.

أيها الأحبة: ذكر الله تعالى لنا في القرآن الكريم إشارة عجيبة إلى ما يجب أن يكون عليه العبد من إخلاص إسلامه لله تعالى، من إخلاص سؤاله لله تعالى، من إخلاص رجائه لله تعالى، إنها إشارة عجيبة لو تأملناها، افترى من افترى على يوسف عليه السلام، وأُدخل يوسف مظلوماً إلى السجن، ولبث في السجن ما لبث، ثم إن الله تعالى جعل لبعض من معه في السجن رؤيا رآها تحتاج إلى تأويل، أولها يوسف عليه السلام، وعلم يوسف بما علمه الله أن أحد هذين الرجلين لا بد أنه ناج، وأنه سيكون قريباً من الملك، هنا يوسف عليه السلام قال لهذا الناجي: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] قال لهذا الرجل الذي ظن يوسف عليه السلام -والظن هنا يعني العلم- أنه ناج وأنه سيصل ويكون قريباً إلى الملك قال له: ذكر الملك أن يوسف المظلوم في السجن، لعلني يخرجني من السجن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يا يوسف هذا ليس من كمال الإسلام والاستسلام لله تعالى، ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢] إنها إشارة أن تخلص عبوديتك لله تعالى، وأن تخلص رجاءك لله تعالى، وأن تعتقد أنه لا يفعل في هذا الكون إلا الله تعالى.

من بديع ما روي -أيها الأحبة- في هذه المعاني، وهو درس نتعلمه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ننتفع به إن شاء الله، روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال -وهذا أيها الأحبة في علم الحديث اسمه حديث موقوف، لأنه من قول الصحابي، ولكن في كثير من الأحيان يكون للحديث الموقوف درجة المرفوع، لأنه يكون مما لا يعلمه الصحابي إلا بتعليم من النبي صلى الله عليه وسلم، صحيح أن ابن مسعود لم يقل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا الحديث فيه من العلم ما لا يعلمه بابن مسعود إلا بتعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان حديثاً موقوفاً لكن له درجة المرفوع، لأنه مما لا يعلمه إلا بتعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن مسعود رضي الله عنه- يقول: إن الرجل ليريد الأمر من التجارة أو الإمارة، يريد أن يصل إلى شيء، أن يتاجر منصب من المناصب،

ويخطط لذلك، ويدبر ويرسم خطة محكمة، ويجعل لذلك كل الأسباب التي من حيث الظاهر ستقوده إلى هذا الأمر، وستوصله إلى هذا النجاح، إن الرجل يريد الأمر من التجارة أو الإمارة، فيُذكر بين يدي الله، فلان يريد كذا، فيقول الله تعالى للملك: اصرفه عنه، هذا ليس له رحمة به، لأنه إن بلغه كان هذا مما ينقص في أمر دينه، كان هذا مما يَشغله عن أمر آخرته، يذكر الأمر بيد يدي الله، ويذكر اسم هذا الرجل بين يدي الله، فيقول الله للملك: اصرفه عنه، قال: فيُصبح يتظنى، يُعمل الظن، مَن دهى بي؟ من الذي كاد وخطط من أجل أن يفشل خطتي؟ فيتظنى في أصحابه وجيرانه، يقول: كأنه فلان، أو فلان من أصحابي، أو أنه فلان من جيراني، قال: وما صرفه عنه إلا الله، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٦-٣٧] أسلم، قال: أسلمت لرب العالمين، كان ظنه بالله تعالى الظن الحسن، وكان إقباله لله تعالى إقبالاً كاملاً، ورجاؤه لا يكون إلا من الله، وتوكله لا يكون إلا على الله، وثقته بأن الرزق من الله، وأن القدر من الله سبحانه خيره وشره.

سبحان الله، هكذا يعلمنا الله تعالى من إبراهيم ﵇، ومن يوسف ﵇، ويعلمنا النبي ﷺ فيما يعلم به ابن عباس ﵁، وهكذا يُعلِّمنا الأولياء والعارفون، اللهم إنا نسألك كمال الاستسلام لك، حسن الإسلام لك، اللهم إنا نسألك يا رب أن تخرجنا من ظننا بغيرك، وتوكلنا على غيرك، ورجائنا لغيرك، إلى كمال إخلاص عبوديتنا لك، حتى نكون من أهل مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] حتى لا نرجو غيرك، ولا نسأل غيرك، ولا نظن أن في الكون فاعلاً غيرك، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فيا فوز المستغفرين استغفروا الله.

بتصرف